**أولا: النحو العربي ونحو النص**

أما ما يثير الانتباه ههنا، تلك اللمعة الدالة التي ألمعت إليها عبقرية سيبويه (1802هـ) في مطالع مصنفه " الكتاب" . أنها لمحة فذة تعبر عن عمق رؤية فريدة تستكشف قضية المعنى ؛ المعنى النحوي الدلالي، أو المعنى المقامي، التي المح إليها النحوي في كلام موجز دال ضمنه نظرية نحوية دلالية في إحدى أبوابه الموسوم بـ " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة" ([[1]](#footnote-1))؛ وذلك لوصف وشائج العلاقات الحميمية بين النحو والدلالة والتداولية للكشف عن قوانين إنتاج المعنى المقامي .

وحقيق ، أن النتاج النحوي العربي يتسم بعظمة انجازاته التي تعبر عن عبقرية فذة سطرها رجال أفذاذ، وفطاحل اللغة قد أصبح مرجعية معرفية علمية لكل عالم تحرير، وكاتب بارع، وقارئ حاذق، له رغبة في البحث والتفتيش في التراث النحوي العربي.

وخير مثال على ذلك، كتاب سيبويه (180هـ) الذي يعدد« أقدم مؤلف يحمل تحليلا فنيا للآيات وأقدس نص نحوي. ومعلوم أن " الكتاب" كتاب نحو يتناول نص القرآن الكريم باعتباره الدليل الأول من أدلة النحو (...) ومما يجعل لهذا التفسير الأثري الذي كان هو السائد في عصر سيبويه. كما يجعل له فضلا أوسع على النحويين اللاحقين، لفتحه لهم باب النظر- لغويا- في كتاب الله عز وجل من حيث النحو والإعراب والمعاني والاحتجاج». ([[2]](#footnote-2))

وهذه نماذج من نصوص القرآن الكريم ، والشعر العربي تبين عناية سيبويه (180هـ) بالمعنى المقامي في النص كله.

وقد تناول هذا فيما أسماه " الاتساع في الكلام، والإيجاز والاختصار"، فمن أمثلة الاتساع والإيجاز أن تقول: كم سبر عليه؟ وكم غير ظرف، فيقول: يوم الجمعة، ويومان. فكم ههنا بمنزلة قوله: ما صيد عليه، وما ولد له من الدهر والأيام؟ فليس كم ظرف كما أن " ما " ليس بظرف«». ([[3]](#footnote-3))في هذا النص اتساع الكلام؛ أي إظهار المعنى المراد، ولكن بالإيجاز، وهو غير مخل بالمعنى.

وهذه صورة لاتساع الكلام والاختصار كقوله« ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى جده: " ﴿ ﴾ (82) [يوسف] إنما يريد أهل القرية، فاختصر، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان هاهنا». ([[4]](#footnote-4))

يكمن الاتساع في الكلام والاختصار في وقوع فعل السؤال على القرية والمقصود سؤال أهل القرية.

ارتبط اتساع الكلام والإيجاز بعلم المخاطب بالمعنى كما في قوله «في الاتساع [ قوله عز وجل ]: ﴿ ﴾ (171) [ البقرة] فلم يشبهوا بما ينعق، وإنما شبهوا بالمنعوق به. وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى ». ([[5]](#footnote-5))

ومن أمثلة اتساع الكلام في الشعر ([[6]](#footnote-6))، قول الحطيئة:

وَشَرُّ المَنَايَا مَيِّتٌ بَيْنَ أَهْلِهِ كَهُلْكِ الفَتَى قَدْ أَسْلَمَ الْحَيَّ حَاضِرُهُ

يريد: منية ميت. بمعنى شر المنايا منية ميّت.

وقال النابغة الجعدي :

وَكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحْتَ خِلَالَتُهُ كَأبِي مَرْحَبِ

يريد : كخلالة أبي مرحب.

وأبو مرحب كنية الظل؛ ويقال كنية عرقوب ( مواعيد عرقوب) بمعنى لا وصال للأخلة أمثال أبي مرحب.

ولما كان الاتساع في الكلام أوسع من أن يحص، فقد اتسع وشمل الكلام العادي. «كما تقول في سعة الكلام: الليلة ليلة الهلاك ولأنه اتسع وأوجز». ([[7]](#footnote-7))

إذن سعة الكلام والاختصار والإيجاز كثيرة لا يمكن حصرها، يحتكم المتكلم فيها إلى إبرام علاقة مع المخاطب؛ أي أن المتكلم يراعي في هذا الموضع حال المخاطب (علمه بالمعنى) للتعبير عن المعنى المراد أثناء إنشاء الكلام.

لاستكناه المعنى في الكلام العادي لجأ ابن جني ( 392 هـ )إلى أسلوب المحادثة. فكان في إحدى محادثاته لابن الشجري، يقول : «وسألته يوما فقلت له كيف تجمع دكانا؟ فقال: دكاكين، قلت فسرحانا؟ قال: سراحين، قلت: فقرطانا؟ قال: قراطين، قلت فعثمان؟ قال: عثمانيون، قلت له: هلا قلت: عثامين؟ قال: ايش عثامين! أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته. والله لا أقولها أبدا». ([[8]](#footnote-8))

ثم قال: «وسألت الشجري يوما فقلت: يا عبد الله كيف تقول ضربت أخاك؟ فقال: كذال. فقلت: أتقول ضربت أخوك؟ فقال: لا أقول : أخوك أبدا. قلت: فكيف تقول ضربني أخوك؟ فقال كذاك. فقلت : ألست زعمت انك لا تقول: أخوك أبدا؟ فقال إيش ذا! اختلقت جهتا الكلام. فها هذا في معناه إلا كقولنا نحن: صار المفعول فاعلا، وان لم يكن هذا الفظ البتة، فانه هو لا محالة ». ([[9]](#footnote-9))

من البين، أن المحاورين ( المخاطبين) في المحادثتين السالفتين، قد أدركا أهمية معاني النحو، وأثرها البالغ في إنتاج معاني الكلام وفهمه.

لما كان علم الإعراب إحدى خصيصات اللغة العربية ، وفرع من المعنى. وإدراكا للعلاقة الوثقى بين الإعراب والمعنى عقد ابن جني ( 392 هـ) في مصنفه «الخصائص» بابا سماه " باب في الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى".فقال : « هذا الموضع كثيرا ما يستهوي من يضعف نظره إلى أن يقوده إلى إفساد الصنعة. وذاك كقولهم في تفسير قولنا «أهْلَكَ و اللَّيْل»، معناه ألحق أهلك قبل الليل. فربما دعا ذاك من لا دربة له إلى أن يقول «اهلك والليلِ» فيجره، وإنما تقديره ألحق أهلك وسابق الليل. وكذلك قولنا: زيد قام: ربما ظن بعضهم أن زيدا هنا فاعل في الصنعة، كما انه فاتر في المعنى. وكذا تفسير معنى قولنا: «سرني قيام هذا، وقعودُ ذاك»، بأنه سرّني أن ق

1. () – سبقت الإشارة إلى هذا النص في المبحث الخامس من هذا الفصل. [↑](#footnote-ref-1)
2. () – النحو وكتب التفسير: إبراهيم عبد الله رفيدة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة- الجماهيرية العربية الليبية، ط،3، 1990م، ج، 1، ص، 101. [↑](#footnote-ref-2)
3. () – الكتاب: سيبويه، ج،1، ص211. [↑](#footnote-ref-3)
4. () – الكتاب سيبويه، ج،1، ص، 212. [↑](#footnote-ref-4)
5. () – لكتاب سيبويه، ج،1، ص، 212. [↑](#footnote-ref-5)
6. () – لكتاب سيبويه، ج،1، ص، 213. [↑](#footnote-ref-6)
7. () – الكتاب سيبويه، ج،1، ص، 290. [↑](#footnote-ref-7)
8. () – الخصائص: ابن جني، ج، 1، ص، 142. [↑](#footnote-ref-8)
9. () – الخصائص: ابن جني، ج، 1، ص، 250. [↑](#footnote-ref-9)